2012

حينَ تُعشَق الــكِتــابة...
وَ يُصبحُ المَعنى رَجُلاً !

تأليف وإخراج : إيمان ملال
مديــنةٌ وجدة – المــغرب

28/02/2012

مَدخلٌ إلى الكِتاب

أعلمُ أنّ من بينكم أشخاصاً غير عاديين، أشخاصاً رفضوا الحياة التّقليدية وباتوا يبحثون في كلّ الأماكن والأشياء، في صفحات الكتبِ والروايات، على رفوف المكتبات وفي الأزقة والشّوارع، وظلّوا يحدّقون في السّماء لأيامٍ بل لأسابيع وشهورٍ... بحثاً عن ذواتهم.

وأعلم أيضاً أنني كنت أفعل الشيء ذاته دوماً- وإلى أن وجدت ذاتي – وجدتها في الكتابة أوّلاً، ثم في المَعنى ثانياً !

لطالَما قلتُ إنني أكتب .. لا لشيءٍ سوى لأكونَ.. وها أنا ذي الآن أقول إن كياني أصبح متجاوزاً، وأنا الآن أكتب لأشارك هؤلاء الأشخاص غير العاديين آلامهم، وأرفع التّحدي ثم أقف في صفوفهم، بيدي اليمنى قلمٌ وبالثانية أحمل كتاباً.

إنّ هذا كتابٌ يُترجم جنوني إلى حروف، وينقل إليكم شيئا من روحي التي نفضت عنها الغبار ثم أيقظتها لتكـــون !

إيمــان ملاّل

★★★★★★★★★★

" يقولون: يدٌ واحدةٌ لا تُصفّـق...

قل أنتَ : سأصفّق .. بلا يَدَيــن ! " *

إيمَان ملاّل

★★★★★★★★★★

*هذا الكتاب هو إذاً محاولة جادّة للتّصفيق بِلا يَدين ! حيث أنه يعبّر عن قلمٍ رفض أن يجفّ حبره ويتذرع بالظروف.
إنــه صرخــةٌ من داخــل حصونِ المعرفة.

المـؤلّفة

قَلَمـي رُمحٌ تـصدّى؛
في الظلامِ سهمٌ بَرَق؛
ومِدادي دمٌ ودمعٌ؛
ودليلي على الوَرق..

تـابعوني على مدوّنتي الإلـكترونية : www.imenemind.blogspot.com

إلـى..

من علّموني أبجديات المعرفة،
وشجّعوني على المُضي في الدّرب
بـهمّة عالية..

وإلى جميع زملائي وأصدقائي الذين
جمعتني بهم الأقدار في أي زمان
ومكان..

مِن هنا بدأت فصـــول الحـــكايـة ...

في الواحد والثلاثين من سبتمبر عامَ 1992، أطلَـقتُ صرخةَ الميلاد الأولى.
كان والديّ يعملان خارج المدينة كمدرّسين، وكنت أنا أقضي مع والدتي معظم الوقت في قاعة الدّرس، وأحيانا تتركني برفقة إحدى صديقاتها نظرا لبعد المسافة بين أفراد العائلة ومكان عملهما. لا أذكر بالطبع شيئاً عن مرحلة ما بعد الولادة بشهور، غير أن والديّ يرويان لي أحيانا بعض المقاطع من طفولتي، والتي استطعت من خلالها تكوين فصول قصّة طفولتي وترتيبها، رغم أن بعض الأحداث تبقى خارج بُعدي الزّمان والمكان.

قضيت جزءا مهمّا من طفولتي بين المجلاّت التي كانت توجّه للأطفال، وكنت في كل عيد ميلاد أتلقى سلسلة مجلات وقصص وروايات من أفراد العائلة. نادراً ما كنت أجد لعبةً تعجبني.. ومع ذلك فإن أكثر ما كان يروقني هو اللّعب مع ابنة خالتي بالألعاب التي يتم تركيب قطعها لبناء المنازل، وأحيانا كنا نلعب بالأواني والأشياء الصغيرة البلاستيكية لعبة الأم والأطفال.

إيمان ما بعد الطفولة تختلف كثيرا، لكنها لازالت تحتفظ ببعض أوصافها.
من خلال المطالعة تطوّر حب المعرفة، وبدأت رحلة البحث عن الذات !
استمرت المعاناة والبحث معها إلى أن دخلت يوما أوّل حصة في مادة الفلسفة، في السنة الدراسية 2007 – 2008، وتلك كانت لحظة الميلاد الثانية !

فتحَ عالم الفلسفة آفاقا جديدة أمامي، بدأت أبحث وأقرأ مقالات ثم أكتب آراء شخصية.
من هناك اتسعت رؤيتي للعالم، وشعرت بأني وجدت الشيء الذي كان ينقصني دوماً ..
إنها الكتابة!

انتقلت من مرحلة اكتشاف الذات إلى محاولة تطويرها. بدأت أنشر مقالات رأي على جرائد إلكترونية محلّية، انضممت لمنتدى الأدباء والمبدعين العرب وبدأت أنشر قصصي القصيرة على مواقع الأدب والفنّ، ثم بعد ذلك أعجبت بهمّة شباب موقع الجزيرة توك وانضممت إليهم بعد معاناة دامت سنتين.

المحبّة طريقنا نحو المستقبل

تُرى أين يكون مصير نهرٍ من الأنهار؟ هل يكون في نهر آخر يفوقه عذوبة؟ أو في الصّحارى الرّملية حيث يختفي هذا النّهر؟ أم أن قدرَه يكون في ينبــوعه ومكان ولادتـه؟

إن مصير نهر من الأنهار لا يكون إلا في منبعه الأوّل، في مُبتـداه ومنطلَقه. وهذا هو الموضوع الذي يمكن التأمل فيه حين نشاهد المسيلات الجافّة التي تخترق جبال الأطلس الكبير المرتفعة.

إن الماضي والمستقبل، والحياة والموت، ليست حين تكون مرتطبة بالرّوح، من صفات الأشياء الخارجية، بل من الصّفات المتعلقة بالروح نفسها. نحن أنفسنا الأحياء أو الأموات، والمسؤولون عن حياة الأشياء وموتها.

إننا لن نحصل على المعرفة إلاّ بمقدار ما نملك من العشق والمحبة، وإن معرفتنا هي تمثّل العشق نفسه وصورته، وكذا ما يسميه عديمو الإحساس والإنتباه "الماضي" هو بالنسبة لحبّنا في "المستقبل". الحبّ الذي هو مبدأ الآتي و واهب الحياة !

يجب أن نكون شجعانَ بما يكفي لندخل ساحة الحب، وأن نستعدّ لهذا الدخول كما نستعد للحرب.

هذه الشجاعة تقتضي عدم الخوف من أن يتم نعتنا بالتقليديين أو " ألا نكون عصريين" ونشبه الجماعة – القطيع بـلغة نيتشه – وأمثال هذه الأوصاف والنعوت المبتذلة، فالإنسان الحكيم يعرف أن الزمان ليسَ قطاراً مشتركاً بين الجميع على حدّ سواء، بل هو في اصطلاح حبّنا ميزانٌ لامتحان كل موجود، فإما أن يثبت به عظمته أو - على العكس – سقوطه المؤسف.

ولعلّ ما يدعو للإضطراب هنا هو تلك الهوّة العميقة التي تفصل بين منجزات وصناعات اللحظة – التي تغير سيرورة الحياة في العالم – وبين منتـجات المفكرين العظماء الذين رحلوا منذ قرون بعد أن حققوا ما لم يمكن الآن لإحدى تلك الصناعات أن تحققه !

ومن باب التذكير نعيد هنا تصوير مشهد له دلالة رمزية قويّة حين حضر محيي الدين بن عربي تشييع جنازة ابن رشد :

توفي الفيلسوف الكبير ابن رشد سنة 595 بمراكش التي كانت له مُعتزلا وموطن وحدة وانعزال عن العالم، وقد نقلت جنازته لقرطبة ليحضر مراسم الدفن محيي الدين بن عربي مع اثنين من أصدقائه، فرأى الثلاثة مشهداً موجعاً، ففي أحد جوانب المكتبة كان الناقلون قد وضعوا

تابوت ابن رشد، وفي الجانب الآخر الكتب التي كان الفيلسوف العظيم قد ألفها ... وكأن مجموعة من الكتب كانت تعادل جثة هامدة !

إبن عربي روى لنا فيما بعد ما خطَر بباله قائلاً :

" الأستاذ في جانب، وآثاره في الجانب الآخر ! كم تمنيت أن أعلم هل تحققت آماله؟ ! " (1)

إننا بعد هذا المشهد المؤلم نملك الشرعية الكاملة لنتساءل : هل للعِلم المعاصر في نظر ابن عربي وجميع معتنقي مذهبه، هذا الفكر الذي انتصر على فوضى الفكر البشري، والذي يؤدي إلى فقدان معنى الإنسان وروحه داخل مجموعة بلا هوية ولا اسم تحمله فيحمل تفاصيلها، وينتهي بنا إلى الارتماء في أحضان العَدمية بدون شروط، هل لهذا العلم بنظره قيمة أكبر من قيمة مجموعة كتب تحفظ جسداً ميّتا بالتوازن؟ هل كانوا مؤمنين بتحقق كل أمنياتهم؟

هذا هو السبب بلا شك في أن عصرنا أصبح يتحدث بلسان اليائس عن محبة إنسانية جديدة دون أن يعلم في الواقع عن أي موضوع يتحدث !

(1) من أجل معرفة قصّة الحادث كاملة راجع:
L'imagination créatrice dans le soufisme d'Ibn Arabi, 1958 page 32 - 38

النّقشُ الأوّل

⇦ عندَ حـدود الـعَقـلِ يـولد الـجنون !

هكذا هَتـف وعيـناه تتلألآن أمَـلاً وفرحاً قبل أن يـتحوّل الحديثُ بيننـاَ إلى حربٍ بلا أسـلحة.

لقد كان يؤمن تماماً بأنّ الشيء إذا تجاوزَ حدّه انقلب إلى ضدّه، ولطـالما أكّد لي بأن الجنون هو أجمل حالةٍ يمكن أن تصيب إنساناً، إنـه اللحظة التي يصل فيها العقل إلى تُخومه وحدوده، وقلّما يستطيع أحدٌ تجاوزها بـسلام.

" سألته بعد أن أخذت نفَـساً عميقاً: هـل أنت مجنـون؟

ردّ بنظرات بالغة الحدّة وكأنه يكره الإعتراف: أنا مجـنون ؟ أظن ذلك .. في الواقع، لم أفكّر في الأمر قبل الآن .. "

لقد كان كلّ واحد منّا يعلمُ تماماً أن الآخر يشاركه نصيبه من الـجنون، لدرجة أنّ جنون العـالم لم يكن يكفي لاحتضـاننـا بكل ما نحمل في أعماقنا، فـلـجأنا لاختراع جنون آخر لا يمـلك مفاتيح الولوج إليه إلا نحـن .. !

كنتُ إذا ما رغبت في التعبير عن شيء قويّ بداخلي تجاهه، أهمس في أذنيه قائلة إنني أكرهه ! لقد كنت فعلاً، وبلا مبالغة، أشعر بأنني أقف عند أقصى درجات الـمحبّة، وهذا الإعتراف الكاذب -نوعاً ما- كان كفيلاً بجعـله يشعر بما أشعر به.

»

- هل تَشعر بـما أشعر بـه الآن؟
- نعـم ..
- وما الذي أشعر بـه ؟ !
- أنتِ تكرهيـنني .. أنت مجنـونة .. أنا أفهمك ..!
- ألن تكفّ عن مخاطبة نـفسِك؟
- أنتِ أنا .. لكنّي لن أنصَهرَ فيكِ أبداً !
- لهـذه الدّرجة أنت قويّ؟
- وأكثر ..
- إذن .. إسمع هذه " لست أكرهك.. أنا أكثر من أحبك " !
- تُصرّين على قتـلي؟
- عزيزي، لست قوياً بما فيه الكفاية !

«

جميلٌ أن نـحاول ارتداء أقنعة الـقوّة كي لا تهزمنا عقبات الطريق، وكي لا تأخذنا كلّ ريح معها إلى المجـهول .. لكـنّه لم يكن يتقن التـمثيل، كان باستطاعتي إزالة أقنعته بـأسهل مما يتصوّر، وهذه القدرة منحتني إياها خاصية أساسية تتمثّل في كونـي " أشبهه" !

كنت أجيد التمثيل أنا أيضاً، وأحيانا حين يسدل السّتار، وتكون الخشبة خالية من الآدميين، كنت أتعلم صناعة الأقنعة .. ولم أكن أعلم أنه سيقع في حبّها وأنها ستصبح أنداداً لي .. وها أنا الآن أحتـرف إسقاطها، الواحد تلو الآخر .. إلى أن أكشف أعماقه وما يخفيه عنّي عن غير قصد !

لم يبقَ بيني وبينه أيّ حجاب، تمّ كشف المستور وظهر المِلِكُ الخشبي وحيداً، وبدت الرقعة خاليا من القطع الأخرى، أحصنته لم تعد تحميه، قلاعـه هُدمت، وكل بيدق تخلّى عنه، في سبيل المحبّة الطاهرة التي تجمعنا فقط، وعندها لم يعد للحرب معنى، إنسحبت كلّ الجيوش وبقينا وحدنا هناك .. نتأمل ظلالنـا، واستغرقنا في التفكـير ..

النّقشُ الثـــانِي

⇦ جميع الطّرقِ تؤدي إلى روما .. ولا طريقَ يؤدّي إليك !

»

- هل تشعرين بالشّوق إليّ؟
- وكيف هو هذا الشعور ؟
- منذ متى أصبح جواب السّؤال سؤالاً آخر؟
- منذ أحببتك لم اعد أعترف بقواعد اللغة، حبّك يجرّ الحروف جميعاً، ويرفع الحركات كلّها..
- هل تشعرين بالشّوق إلي؟
- قلت لك لا ..
- الخيانة الأولى !
- بل الذّوبان الأوّل !
- كيف ؟
- كما فهمت ..
- هل حقا لا تشتاقين إليّ؟
- مؤكد .. لا أشتاق إليك فأنت تسكنني. نحن لا نشتاق سوى لما لا نراه لمدّة طويلة، ما لا نسمع عنه ولا نقرأ عنه ..
- أحبّكِ أنا !
- تقتلني ..
- وأنتِ لست قويّة بما يكفي عزيزتي .. !

«

شخصيّة مميزة، إنه يحاول في كلّ مرة أن يسجّل هدف التعادل في مرماي، لغته، فكره، واقعه.. عناصر تتفاعل في خليط واحد لتنتج عبقريته.
الكيميائي لا تفوته مثل هذه التفاصيل !

كنتُ أحاول الوصـولَ إليه بلا جدوى، يثير في نفسي رغبة في الهزيمة لم أشعر بها من قبل !

أرأى أحدكم قتيـلاً دمعت عيناه حبّـا في قاتـله غيــري أنـا ؟

رومـا بعيدة جداً، ومع ذلك يكفي إذا ما قرّرت زيارتها أن أقطع تذكرة في أسرع طائرة متجهة إليها.. أمّا هو، فقد يلزمني شهور وربّما أعوامٌ.. وقد تنتهي بالفَشل الذريع !

لا شيء مضمونٌ في ساحة الحبّ ..

إنه أشبه ما يكون بـلعبة قمـارٍ الخاسر فيها دوماً رابحٌ !

»

- إنّك وحدكَ تملك الآن كلّ المفاتيح، فأي باب شئت أن تفتحه لن يمنعك أحد !
- ومن قال إنـني أريد أن أفتح باباً ..؟
- ولا حـتّى نافذة صغيرة؟
- لاشيءَ من هذا ..
- إذن لماذا تُصرّ على الإحتفاظ بالمفاتيح؟ حرّرنــي إذن، أطلق يديّ من يديك وأبعد عنّي عطركَ وانسَحب في هدوء ..
- لكـل باب أوانه، ولم يحن أوانُ الباب القادم بعد .. أعتبرها دعوة للإنسحاب ؟
- ليست دعوةً .. إنّها أمرٌ !
- حسناً، وداعـاً ! (لنـجرّب)
- لا لا .. إنتظر، نسيت أن تعطيني المفاتيح !
- كيف فاتكِ أن المفاتيح لا تُعطى .. إنها تؤخذ بالقوّة عزيزتي !

«

ربّما كانت مجرد دعوة ساذجة لانسحاب لم أكن لأسمح به.

لـكنّي تعلمت منها درساً بالغ الأهمية، وهي أن المحبة التي تُولد بلا مقابل، لا يجوز لها أن تنتهي !

كان يملكُ مفاتيح القلب والعقل معاً ..

وأمّا الأبواب فلم يكن يجرؤ على فتح أيّ منها، ظلت مغلقة ولا تزال مغلقة !

لقد قضينا زمناً طويلا من عمرنا ونحن نحمل نفس الأحلام، نفس الأوجاع ونتكلّم بنفس اللغة..

نحن وُلدنا بين ثنايا صخرة "درويش"..

ولدنا غريبَينِ معاً؛

وَ كَبُرنا بينَ وجوه لم تشعر بنا يوماً؛

تألّمنا وصارعنا الموتَ صمتاً؛

وكمْ قُتلنا في محراب الإله؛

كم قدّمنا من قربانٍ لكي يهطل علينا العفوُ من السّماء؛

ويعكسَ اللعنة التي أصابتنا بها الأرض والأقدار..

كلانا كانَ يعرف أنه لن يستمر على وضعه طويلاً، كنّا نمضي الليالي الصّيفية في ترقّب نجمٍ في السمّاء، نجمٍ سحري يحمل إلينا رسالةً من الجانب الآخر..

لقد كنّا مجرد طفلين حالمين تعيسَين كارهَين للتقليد ..

كنّا نهوى الإبداع، ونعشق الحياة المثالية وحسب ..

والآن، ملذّات الحياة لم تعد تغري أحداً منّا، إنّها زائلة تخدعنا لدقائق وتموتُ حاملة معها الحبلَ الذي شنَقتنا به !

لم نعد بحاجة لشيءٍ، إنّنا ونحنُ معاً، نشعر بأن العالم كلّه يقف في صفّنا، الوحدةُ والحزن لم تعد تحتل مرتبة تُذكر في قاموسنا، كيف يحدث ذلك ونحن نملك كلّ شيء .. وقريبا نَملكُ أنفسنا !

النّقشُ الثّالثُ

⇦ الحبّ الذي لا يـربّيك، لا يهذّبك ولا يجعلك تتـعالى عن شهواتك ليسَ مفيداً بشيء !

»

السّاعة تشير إلى الثـالثة والنّصف فجـراً ..

- لقد طال حديثنا اللّيلة على غير العـادة .
- أجل عزيـزتي .. وما الحـلّ؟
- لا توجد مشكلة أصلاً، وإن افترضنا جدَلاً وجودها فالأفضل أن تبقى بلا حلّ !
- تراوغيـن كعادتــك ..
- دعنا من هذا، هل تعلم ما الذي أرغب به في هذا الوقت ؟
- ماذا؟
- لست أدري .. أشعر برغبة قويّة في الصّلاة وأنتَ إمامـي.

«

صحيحٌ جدّا أنه ما اختلى رجلٌ بامرأة إلا كان الشّيطان ثالثهما..

لكن نحن، كان الله ثـالثنا بلا منازع !

إذا فاتك أن تكون ملاكـاً، حاول على الأقلّ أن تـقتل الشيطان بداخلك، أن تُعدمه وتـقيم على جثّته وليمةَ النّصر !

إن الشيطان لا يتـمكّن من الجميع، ما دام كل واحد منّا يملك القدرة على الإنتصار عليه بالعزيمة والإرادة والمـحبّة في الله ولله وبــالله !

إجـعل حبّكَ سببا في تقربك من الله الذي وهبك إياه ويملك القدرة على سـلبك نفس الحبّ متى شاء !

الحب الذي لا يربيك، يهذبك، يقربك من خالقك أضعاف ما يقربك من المحبوب، هو حب لا قيمة له، وأفضل شيء بإمكانك فعله به هو إلقاءه في ذاكرة النسيان بأقل الخسائر الممكنة، لأنك وإن لم تفعل، فإن القدر سيفعل ذلك .

كان لديّ شعور غريب يخبرني أنّه ما من عملٍ أجمل يمكن القيام به رفقة المحبوبِ ..

لا يوجد ما هو أجمل من الصّلاة جنبا إلى جنب ومن ثم مناجاة الله لعلّه يغفر ما سَلف.

هذه هي المَحبّة الحقيقية ..

فنحن جميعا نوجد بداخل الكهف الأفلاطوني؛ لا نرى سوى الظِلالَ، في حين أننا لو جربنا التحررّ من انفسنا فسيمكننا حينها رؤية الشمس، رؤية النّور .. جمال الحقيقة التي لا تزول.

إنّ عشقنا لله وللأبدية يحول بيننا وبين النفس، يربّينا كلّ يوم ويهذب أخلاقنا فنغدو معه أشخاصاً آخرين بقلوب صافية كأديم السّماء.

لم أشعر يوما بأني أحلّق فوق السّحاب مع أحدهم كما أشعر معه ..

السّعادة الحقّة والمحبة الحقيقية لا تُعطى لنا سوى مرّة واحدة، ويجب أن ندرك بقلوبنا إمكانية الحفاظ عليها !

*

**

***

يختفي الألم كلّما كلّمتك ..

ينتحر الجوع والعَطش كلّما فكّرت فيك ..

ثم أغدو إنسانة جديدة حينَ أدعو الله بإسمك وأناجيه بيديك ..

أدعوكَ كي تنساني في حضرة الله ..

لا لشيء سوى ليزيدك قربى منه ومن نَفسك .. أنا !

***

**

*

النّقشُ الرّابـع

⇦ أشتهي أن أسأل نفسي كم يوجد منّي في داخلـي؟

أكثر من معـنى / أكثر من نصّ / أكثـر من قصيدةٍ وأكثر من حـزن ..

أريد أن أعرف كـم مِن أنـا يوجد في أنـا؟

... أشعر بأني هيكـل عظمي لكائن أسطوري منقرض؛

منذ زمن وأنا أدمـن الكتابة والـقهوة والـقراءة والسّرير؛

معَ ذلـك ..

يقتلني شعور أحمق بأني لا أنتمي لأي من تلك الأشيـاء؛

فلا أنا أنتمي للكـتابة ولا لـفنجان القهوة ولا للكتب أو السّرير !

عندَما أخبرته بهذا قال لي واعظـا: حاولـي أن تنتمي لـنفسك عزيزتي !

أجبت بـسرعة وكأنني انتظرت النصيحة منذ زمن: يكفيني أنّي أنتمي إليك .. نفسي !

كان يحاول إعادة ترتيب المفردات التيّ أنثرها على مَكتبه الخَشبي، يـأخذ منيّ فنجان القـهوة ويقـول: ستحرمك من النّوم الليلة ولن نلتقي في الحُلم !

يأخذ منّي القلمَ ويـضعه بجانب ورقة مكتوب عليها " أكتـبها بـدمك... "

أفهم ما يريد الوصـول إلـيه ..

أسـاعده في إرجاع الكـتب لرفوفها التي قام بـإعدادها بنفسه هديّة في يوم مولدي، أنسى كل الأفكـار التي تشوش علـي سعادة اللحظـة..

ثم نـسافر .. نجوب العـالمَ ولا نعـود !

النّقشُ الخامس

⇦ أمّة "إقرأ" أصبحت أمّة " قلّد " .. !

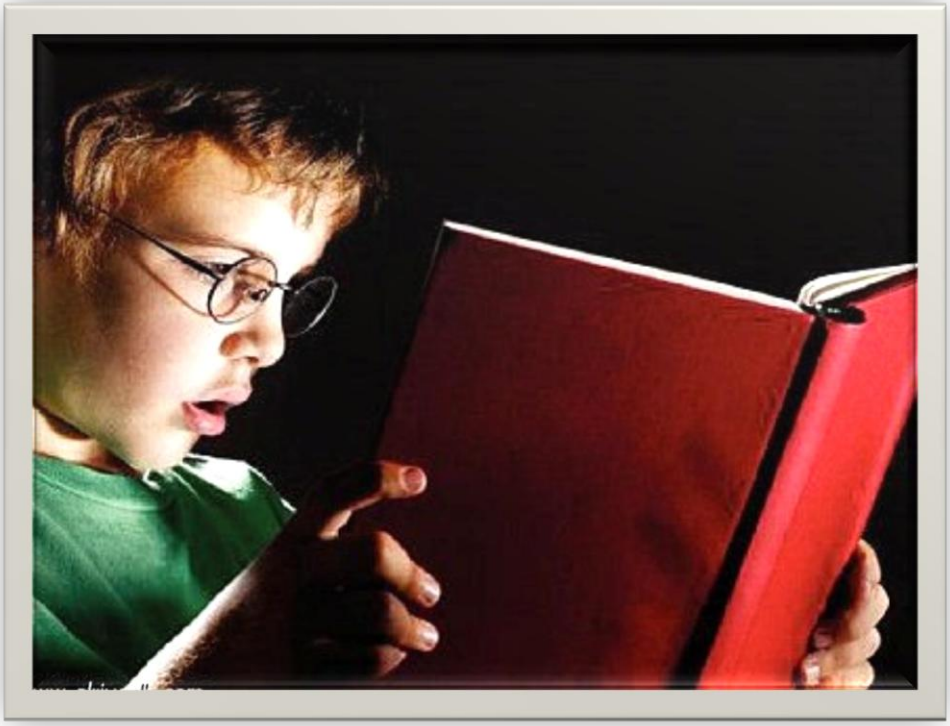

»

- كم تظنّ أن العربي يقرأ من كتابٍ في السّنة؟
- بالنظر إلى معدّل القراءة في العالم العربي وحسب آخر الإحصائيات، أكاد أجزمُ أنه لا يقرأ أكثر من نصف كتاب في السنة ! .. أتحدث هنا عن المعدّل العام، ما يعني أن الأغلبية هي ممن لا يقرأون أكثر من صفحة واحدة في السّنة.. وربّما مصادفة !
- معَكَ كلّ الحق .. لو كنّا نقرأ لما بقينا على ما نحن عليه منذ سنوات.
- نحن نعيب على الغربيين إباحيتهم في عطلة الصيف ونهاية الأسبوع، وننسى أنهم يقضون باقي الأوقات في العمل الجادّ والقراءة..
- والأتعس من ذلك أنّنا نقلّدهم في الإباحية ونهمل العمل الجادّ ! هناك مقولة يهودية بمعنى " العرب لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون، وإذا فهموا لا يطبّقون " ..
- وما الحلّ برأيك؟ هناك ما يكفي من الانتقادات ولا يوجد حلّ عمليّ واحد.
- لقد وَضعتَ يدكَ على الجرح. أيا كان هذا الحل فهو بالتأكيد لن يأتي من الخارج.. الحل يجب أن يكون وليدَ أنساقنا الإجتماعية والثقافية.. تلك العلاقة التفاعلية بيننا وبين الواقع يجب أن تحدّد المصير ..

- فكّرت في ذلك.. وأظن الحلّ كلّه يتمَحور حول كلمة واحدة " المسؤولية " .

- في الغرب حين ينجز أحدهم عملاً ما فإن الآخر يقول بما أن أحدهم استطاع أن ينجزه فأنا أيضا أملك القدرة على فعل نفس العمل وربّما أفضل منه.. أما العربي فيقول بتواكلٍ و بدون أي قدر من المسؤولية والاهتمام: إذا كان الآخر قد قام بالعمل فلماذا أنا مضطر للقيام به أيضا؟

- تماماً. أحياناً أشعر أن العقل العربي ليس بحاجة ليتم نَقده – محاولة الجابري مثلا – ولكنه بحاجة لإعادة برمجة حقيقية، لخطّة تهدمه وتعيد بناءَ أنساقه من جديد .. منظومتنا الفكرية والثقافية الداخلية مشتّتة وتعاني شرخا في الذاكرة والقاعدة بالأساس، وبذلك فإن أي محاولات إصلاحية لن تكون مُجدية.. فما يجب إصلاحه هو القاعدة التي تتشكّل أساسا من قوى التقليد الأعمى والقبول الجاهز للمعطيات والإتكالية وغيرها .. الإصلاح الحقيقي لا يكون بتغيير القشور أو بجلب خطط إصلاحية ناجحة في الغرب.. العربي إنسان مختلف، ثقافته وطريقة تفكيره وعقله .. روح الأمّة العربية تختلف عن روح الأمم الأخرى .. ولا يعقل أن نطبق على العربي خطةّ إصلاحية نجحت مع الغربي وننتظر منها أن تأتي بنتائج مقبولة !

- تريد القول إنه يجب التّخلص من سِحر العادة، والجهل الذي يلفّ الرّقاب كالحبال.. وأنا أرى أن كل ما ذكرته صحيحٌ، وما يلزمنا الآن هو محاولة النزول لأرض الواقع، والبدء بالعمل..
«

كانَ حوارنا عن ثنائية العقل والنقل، عن ازدواجية المعايير التي تحكم مجتمعاتنا العربية، وعن كيفية الخروج بحلّ واحد تعمل عليه مختلف الجهات، فقد بدأ العدّ التنازلي منذ سنوات، ونحن شعوب العالم العربي نُخاطر بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى .. إننا في طريقنا للتضحية، وضحّينا قبل الآن، بعدة كفاءات كانت لترفع العالم العربي وتجعله يلحق بركبِ الدول المتقدمة..
ما الذي يفسّره إذن عدم اهتمام أنظمتنا التعليمية بالأطفال الموهوبين؟
فتحها الباب على مصراعيه أمام مسابقات الغناء وما يسمّونه " المواهب " بين آلاف الأقواس، وبالمقابل إغلاقها الباب أمام مسابقات وفعاليات تسمو بالروح والعقل؟

هناكَ خطط يتم حَبكها في مكانٍ ما، ولا يهمنا البحث عن المسؤول الآن، لأن ما حدثَ قد حدثَ وانتهى كلّ شيء .. ما يهمنا هو أن نحارب !

وكيف سنحارب ؟
يقال إن أفضل طريقة لهزيمة العدوّ هي محاربته بنفس سلاحه..
هُم ينشرون الجَهلَ في المؤسسات " التعليمية " ونحن سننشر العلمَ خارج هذه المؤسّسات.

إن الواقع يعلّمنا أن المعرفة لا تحتاج لأسوار تُلقّن بداخلها ..
المعرفة يمكن الحصول عليها في الهواء الطلق وتحت الأشجار حين نتأمل الطبيعة ونفكرّ في أسباب الظواهر التي تحدث أمامنا..

هناكَ جيل قادم من الشّباب الذين يملكون طاقات لو فجّروها لزَلزلت الأرض من تحت أقدامهم، ولكن الإستحمار الذي يمارس عليهم، والضغط النّفسي يجعلهم يظنون أنهم فعلا لا يملكون للعالم ضرّا ولا نفعاً !

"هناك عدّة أنواع من الثورات، ونحن اخترنا ثورة القلم والضّمير.."

" إنتِظـارِكَ أشـبه بانتـظار الـمطر في أيـامِ الصّيف الحـارّة حيث الـشمسُ تأبـى الرّحيل "

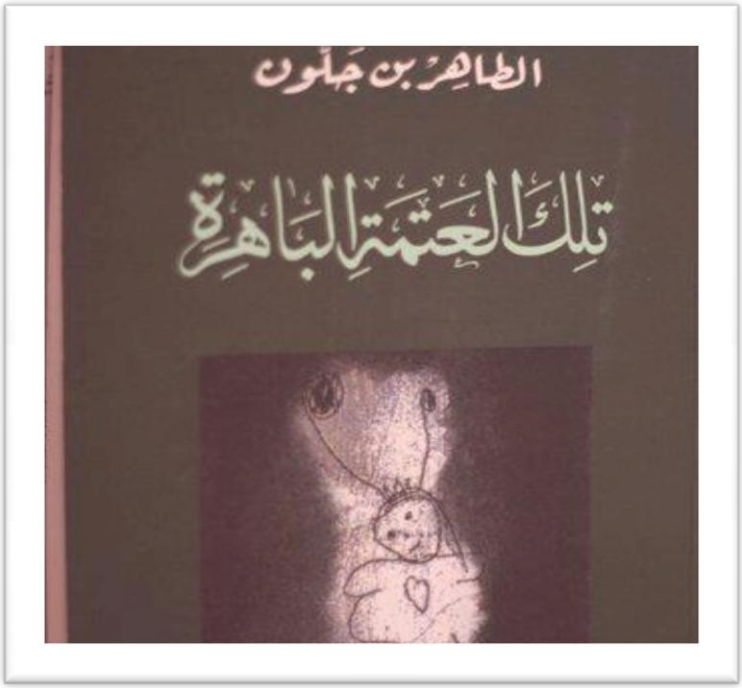

عنوان الكتاب : تِلك العتمة الباهرة
المؤلف : الطاهر بن جلون
نوع الكتاب : رواية من أدب السّجون

ملخص الكتاب : رواية واقعية مستلهمة من شهادة أحد معتقلي سجن "تزمامارت"، تروي عن آلام السجناء بلغة مؤثرة. ولعلّ ما جعل منها رواية متميزة هو انتماؤها لأدب السّجون الذي انتشر في العالم العربي لفضح أشكال إهدار حقوق الإنسان العربي وقمع حريته. ويمكن ملاحظة أن الطاهر بن جلون قد تمكن من تحقيق توازن ملموس عبر الرواية، بين الشخصية الأساسية والأحداث الأساسية، وكأن كل حدث خارجي قد وقع بداخل السجين وتسبب إما بانهياره أو تضاعف قوّته.

يقول في مطلع الرواية :

" لطالما فتشت عن الحجر الأسود الذي يطهر روح الموت. وعندما أقول "لطالما"، أتخيل بئراً بلا قعر، نفقاً حفرته بأصابعي، بأسناني. يحدوني الأمل العنيد بأن أبصر، ولو لدقيقةٍ لدقيقة متمادية خالدة، شعاع نور، شرارة من شأنها أن تنطبع في مأق عيني وتحفظها أحشائي مصونة كسر. فتكون هنا، ساكنة صدري، مرضعة ليالي البلاختام، هنا، في هذا القبر، في باطن الارض، برائحة الإنسان المفرغ من إنسانيته بضربات معزقة تسلخ جلده وتنتزع منه البصر والصوت والعقل".

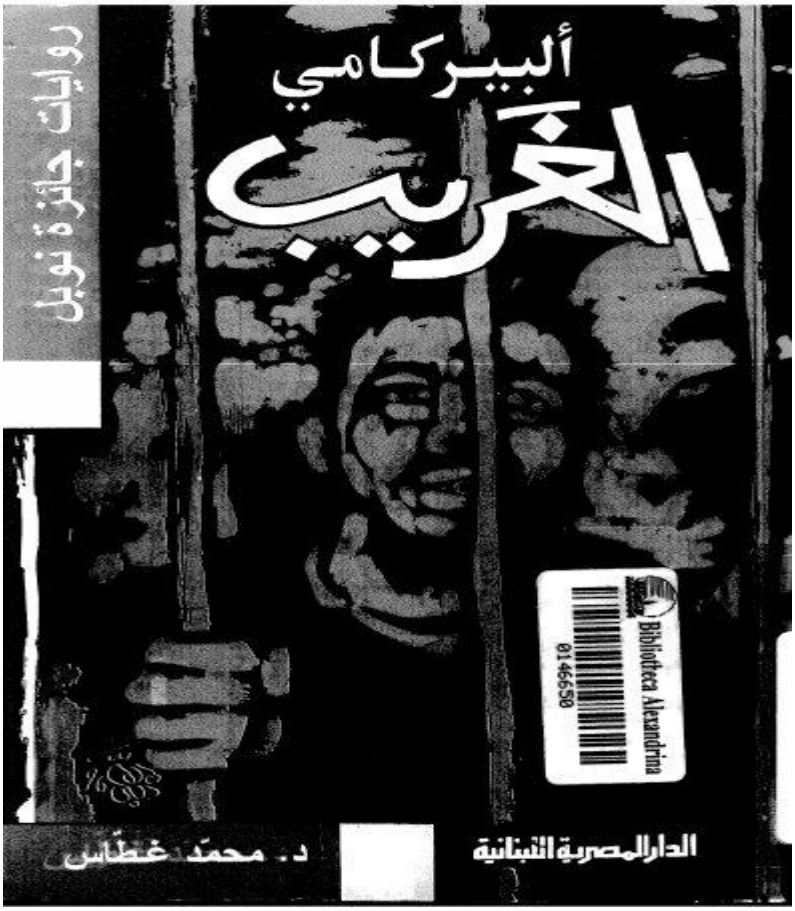

عنوان الكتاب : الغريب
المؤلف : ألبير كامي
موضوع الكتاب :

" أمي ماتت اليوم. وربما كان ذلك بالأمس، لست أدري ! فقد تلقيت برقية من دار المسنّين تقول : "ماتت الأم. الدفن غدا. تحيات طيبة. " وهذا لا يعني شيئاً، فربما كان ذلك بالأمس "

بهذه الفقرة يبدأ ألبير كامي (أو ألبير كامو) روايته " الغريب " التي تتحدث عن غريب يروي قصته التي بدأت بغربته عن بلده وانتهت بموت أمه، حيث يصبح القارئ قريبا جدا من الشخصية عبر الوقائع التي يعرضها، والتي تجسد في الواقع غربة عن النفس وعن الحقيقة كما يرى بعض النقاد. في النهاية لم يبق لهذا الغريب أي صديق حُكم عليه بالإعدام بعد اقترافه جريمة قتل شاب. ثم تتوالى الأحداث لتعكس صراع الإنسان مع نفسه ومع العالم. وقد كانت هذه أولى روايات ألبير كامو الحائز على جائزة نوبل للآداب .

النّقشُ السّادس

⇦ الثقافة .. بينَ الغاية والوسيلة !

»

- ألا ترى معي أنّنا نعيش "أزمة ثقافة" حقيقية ؟
- هذا يتوقّف على ما قد تعنيه الثقافة.
- أجل، كنت سأسألك أيضاً: هل الثقافة غاية أم وسيلة؟
- الآن فهمت سؤالك الأول.. فبالنظر لمثقفي اليوم، نجد أنهم يعتبرون الثقافة غاية حين يصلون إلى مستوى مهمّ منها ويدخلون في منظومة ما يسمّى "النّخبة" ينسَون أهدافهم السابقة ويذوبون في أنساق المنظومة. إنهم ببساطة يعتقدون أن الثقافة مستوى فكري وعلمي حين يصلون إليه ينتهي دورهم..
- هذا عنصر من الجواب .. فالسؤال الأول – في الواقع - له أوجه كثيرة: مفهوم النّخبة مثلاً بحاجة لإعادة نظر وهَيكلة. مفهوم الثقافة أيضاً .. المثقف بهذا المعنى يعيش أزمة مع ذاته قبل كلّ شيء .. وأزمة مع المجتمع ككل.
- وَصل الفكر والثقافة والنظريات الأدبية والفلسفية إلى مستوى لا يمكن إنكار أهميته، غير أن السؤال الذي يجب أن يُطرح، رغم أنه طُرح قبل الآن وحاول كثيرون الإجابة عنه، فلم يجيبوا في النهاية لأنهم ضاعوا في دوامة التنظير وعادوا للصفر متناسين السؤال الأول، هو : "كيف نخرج بالنظرية الفكرية للواقع ونبعدها عن سجن النّص وقيود الورق ؟"

«

كان حوارنا عن أزمة الثقافة وما يرتبط بها من إشكاليات جوهرية، فقد بنينا تصوّراتنا على ملاحظات نعيشها :

- هناكَ شرخٌ عميق بين النّخبة (الإنتلجنسيا – الطبقة المثقفة) وبين فئات المجتمع التي لا تستطيع الإحتكاك بهذه الفئة.
- هناك من جهة أخرى إنعدام للتواصل بين النّخب الفكرية والسياسية والإجتماعية وبينَ الفئات المجتمعية الباقية : المثقف يتحدث عادةً لغة "غير مفهومة"، وكأنه لم يكن يوماً من أولئك الذين انفصل عنهم وبات ينتقدهم ويؤسس نظرياته بناءً على دراسة طرق تفكيرهم.

- هناكَ أيضاً عدد كبير من النّظريات الإصلاحية وغيرها.. والتي تضع من بين أهدافها حلّ مشاكل الشعب، في حين أنها لا تملك وسائل التواصل معه، وإن كانت تملك بعضها فهي لا ترقى إلى المستوى النّظري المسطّر ..

****

حينَ نطّلع على إحصائيات تؤكد ارتفاع عدد المتخرجين من كلّيات الطبّ والهندسة وغيرها من المجالات العلمية، وحين نلاحظ الإكتظاظ في مدرّجات الكلّيات (العلوم والآداب والقانون وغيرها..) ثم ننظر للواقع لنرى أن المجتمع لم يتطور، أن البحث العلمي بالبلدان العربية لا يزال موجوداً بالإسم فقط .. وحينَ نلقي نظرة على المكتبات ونجد العدد الهائل من الإنتاجات الفكرية والأدبية التي تزداد كلّ يوم... حينها نطرح عدّة تساؤلات من بينها : أين تذهب كلّ تلك الطاقات الفكرية والبشرية ؟ أين يمكن أن نرى تطبيقات فعلية لتلك النظريات التي ندرّسها لأبناء الشّعب ؟ والمؤلفات .. ما فائدتها ؟
وقد نذهب بعيداً جدا ونتساءل : ما الفائدة من المثقف؟

ليسَ صعباً أن تقرأ سبعين مؤلفاً في السّنة، وليس صعباً أيضا أن تكتب نصوصاً كلّ معجمها متخصص ولا يفهمه إلا من لديه مستوى فكري مثلك أو يفوقك..
وليس صعبا أيضا أن تبيع رواية أو قصّة أو تخرج بنظرية إجتماعية للسّوق ..
لكن الصعب هو، بكل وضوح، أن تتمكن من تطبيق كلمة واحدة ممّا تكتبه أو تقرأه !

تلك الطبقة المثقفة التي يحلو لهم تسميتها "الإنتلجنسيا"، علماً أنها كلمة مُعرّبة دخيلة على قاموسنا العربي ولحقت مؤخرا بركب كلمات سبقتها زمنيا، والتي -كما قلنا- تعتبر الثقافة نقطة يجب الوصول إليها وحسب، دون الحديث هنا عن أشباه المثقفين أو "المتثاقفين"، هي في الواقع بدون أية فائدة !

لم نرَ يوماً قاعة مؤتمرات يدخلها أناس عاديون لا علاقة لهم بالكتب والفكر، ولم نشاهد برنامجاً ثقافياً يتحدث لغة الشّعب ..
هناكَ محاولات فعلية ومقصودة لعزل المثقف عن الواقع المعيش لكي يبقى مجرّد كائن أسطوري / خرافي يحلّق في الأعالي ولا يعرف عن القاع شيئاً !
أنا لست ضدّ الهجرة من القاع نحو القمّة، بل ضد الهجرة إليها والبقاء فيها دون محاولة الرّجوع لحلّ مشاكلها.

ربّما بعضكم يذكر قصصا كنا نقرأها ونحن صغار، عن شبان يرحلون عن القرية حين يبلغون سنّا معينة لإتمام دراستهم بالمدينة على أمل أن يعودوا للقرية محمّلين بشتى المعارف العلمية لينشئوا مشاريع فيها ويساهموا في النمو الإقتصادي..

ماذا لو لم يعد هؤلاء الشّبان في الجيل الأول؟ ويتكرر الأمر مع الجيل الثاني، الثالث والرابع... ؟
هل سيكون لهجرتهم أهمية بالنسبة لسكان القرية الذين يعقدون عليهم آمالاً بأن يصبح بعضهم مدرّسين لتلك العلوم بالقرية، والبعض الآخر مهندسين لاختراع آلات زراعية بتكاليف أقلّ من التي يستوردونها؟

إنه في الواقع أمر شبيه جدا بالبعثات الدراسية التي تتم على مستوى طلاب عرب يتم إرسالهم للغرب للتعلم.
وهو أمر شبيه جداً بحال المثقفين في بلداننا .. يهجرون العامة ليرتقوا بعلومهم وحين يرتقون ينسون كلّ شيء ويفقدون لغة التواصل مع ذواتهم الأخرى !

أرى أن مفهوم النخبة يجب أن يتم إزالته، رغم أن مشكلتنا في الحقيقة ليست مشكلة مفاهيم، غير أن الثقافة يجب أن تنصهر كلّيا في فئات المجتمع، لا أن تواصل تحليقها وارتفاعها يوماً عن يومٍ ..
دور المثقف الحقيقي يجب أن يتمثل في الإحتكاك بهموم الشّعب، التّحدث بلغته، دعوته لنقاشات المثقفين لكي يشعر بالمسؤولية، فالمثقف حين ينصّب نفسه مسؤولاً وحيداً عن آلام الشّعب ويحمل على عاتقه رسالة الحقوق فإنه يقوم -بطريقة غير مباشرة - بتهميش الآخر الذي من المفترض أنها مشاكله هو.

" إن المثقف الحقيقي لا يعرف الشبع، ولا يتوقف عند لحظة معينة، كي يقول لقد أخذت كفايتي .. "

"الثقافة ليست أماناً واطمئناناً، وليست دعة وهدوءا، وإنما هي العيش في خطر، وهي قلق وتوثب دائم"

فـؤاد حَـسن زكَـريا

النّقش السّـابع

⇦ وهمُ الحـرب ضدّ الآخـر.. !

»

- إلى أيّ مدى تعتقدُ أن الـآخر هو عالمٌ مـمُمكن ؟
- الآخـر هو عالم ممكن الإكتشاف والإختراق بسهولة، يكفي أن يتحقق التّـواصل بيننا لنتخلص من الشعور الخانق بالوَحدة والغربة، ونقتل المقاومة التلقائية التي نبديها في مواجهـة كل كائن غريب لا نعرفه .. ونتأكد بعد ذلك أنه إنسان يشبهـنا، ومع ذلك يبقى بداخل كلّ إنسان تعرفه إنسانٌ لا تعرفه !

«

" أغلب الحروب التي نهزم فيها هي غير موجودة أصلا، ولا تعدو أن تكون مجرد خيال ذهني اخترعناه لنصب فيه غضبنا و نثبت فيه جدارتنا بالفوز ثم ننتهي بالهزيمة..
كيف لا والعدو وهمٌ، و المعركة وهمٌ، والسلاح أننا نقامر بأنفسنا .. !"

كانت هذه خلاصة تجارب شخصية، نماذج حروب فاشلة مع آخر غير موجود أصلا ..

يحدث هذا حين لا نكلّف أنفسنا عناء معرفة هذا الآخر المختلف عنّـا، لا نمنحه فرصة ليشرح وجهة نظـره، نـحاربه في البـداية كأنه عـدوّ لمجرد أن "غريب" عنـا، رغم أن الغريب ليس هو ذاك المختلف القادم من مكان بعيد، بل إن الغريب يسكننا على نحو غريب، إنه في أنفسنا، كما تقول الفيـلسوفة جـوليا كريـستيفا .

إنّنا إذن نصنع وهـماً يسـمّى العـدوّ، وأحيـانا نستعمله كـدميةٍ لنـستعرض أمامه عضلاتنا، ذلك الآخر الصّامت يبدو لنا للوهلة الأولـى إنسانا لا يـمكنه أن يفهـمنا، وقد نشعر تجاهـه بالكـراهية القصـوى، في حين أننا لا نكـره في الواقع سوى أنفـسنا.

الآخـر مرآة لنـا، حين نكـرهه فإنـنا نكره صورتـنا المنعكسـة في ما يظهر لنا منه.

النّقشُ الثامن

⇦ العقل والقلب .. هل يجتمعان ؟

»

- ألا زلت تُصرّ على أن العقل والقلب يجتمعان معاً؟
- لست على يقين مطلق، لكن بالنسبة لنا، وبكل فخر أجل !
- هل سيصل بك الأمر إلى أن تمضي ليلةً بأكملها في قراءة كتابٍ برفقتي؟
- أكثر من ذلك .. سأنشئ لكِ أكبر مكتبة رومنسية ممكنة !
- مكتبة رومنسية؟
- وهذا عنصر المفاجأة !

«

لم أكن أعلم أن العقلَ والقلب من الممكن ان يجتمعا في رواية واقعية إلى أن عرفته، وعرفت إصراره وأمله المشعّ من بين حروف كلماته، وتأكدت من أن ما كان مستحيلاً في الماضي أصبح من ممكنا جدّا تحقّقه ..

لقد كان يدرك أن المحبّة تولّد في النفس الرغبة في مشاركة الآخر كل ما هو جميلٌ، ولمّا كانت القراءة هوايتنا التقى العقل بالقلب في ثنائية من الصّعب أن تشهد لحظة انفصال.

أفـقد الوعـي في حضرةِ الحبّ والفلسفة

أنـحت التعـابيـر على جسـد الآخـر

نحوَ مشروع جديد لبناء مُجتمع المَعرفة..

إيـمان، عاشقة الهُوَ..

النّقشُ التّاسع

لماذا لا تغضب ..

لماذا لا تفجر الغضب الذي بداخلك ..

لا تجرؤ؟ تخاف من شيء مّا؟ أم أنّ هذه المحبة تمنعك ؟

وأيّ محبة هذه؟ هل تسيطر عليكَ تماماً؟

تحرّكك باتجاهي ولا تأبه للمخاطر؟

أعلم تماماً أن الشعور بالغيرةِ من كل هؤلاء العابرين يقتلك ..

أشعر بكل شيء يجري بداخلك وكأنه يجري بداخلي أنا ..

أودّ لو تفرغ كلّ غضبك وتحجبَ عنّي رؤية الشّمس في عيون الآخرين؛

أودّ لو تنسى أنّي امرأة.. !

لا يهمني ما قد تعتقده، فكّر فقط في أني أح ب ك !

دعني أرتمي بين ذراعيكَ وأنسى العالم كلّه بينهما،

لا.. لن أنسى شيئا، ستكون أنت العالم كلّه .. !

أيّ حياة هذه التي تعيشها الآن ؟

بل أي موت هو .. !

أريد منك أن تجعلني أشعر بأنك الأمان كلّه ..

لذة الغياب في غيابك تغريني بالرحيل إليك؛

بالموت على صَدركَ حين يحين أوان ذلك ..

فقط إغضب .. حين يستدعي الأمر غضبك،

...فأنا امرأة تعشق ثورة المَحبوب !

النّقشُ العاشر

فـراغ مـلـيء بـكل الأشياء؛
لوعـةٌ بالمحبّة تصيب الروح؛
سرّ للوجود يكشفه الفراغ؛
فراغ آخر مكوّنٌ لكل الأشياء؛
تـسليمٌ بكمال الله !

لوعة الـمحبّة هل هذه ..

موت الـذاكرة على جسد الـمحبّة؛

نسيان الألـم عند رؤية الـمحبوب؛
والصّـمت في حضـرة الجـمال ..

أقـول له :

لا يوجد حبّ كالـذي تبحث عنه؛

كلّ ما يوجد هو حربٌ.. سقطت منها الـرّاء !

وما الـفرق؟ .. لا شيء .. يقول !

الإنسان لا يتـقن سوى لغة الأنيـن؛

الألم نفسه باتَ يتمنّى انقراضَ الإنسان !

الطّبـيعة تصلّي ..

كي ترحمَها السّماء؛

لا أحد يريد أن يصدّق ..

أن الوجود مجرّد كذبة..

وبالتـكرار يصبح الكذب حقيقة !

أنتَ واحدٌ من ملاييــر البَشر،

وُلــدوا لا يعـرفون ..

عاشـوا يتوهّمون المـعرفة..

ثم، ماتوا .. لا يعـرفون !

يقولـون أنتم لا تـفهمون؛

أنتمْ حمقـى يرونَ المَطر فيحسـبونه دمعَ الحبيب !

يقولون إن أصواتكم تزعـجنا،

توقظـنا من سباتنا الجـميل !

يدعـوننا للصّمت، للنـوم ككل الآخـرين ..

أما نحن فننـظر إليهم،

نشفق علـيهم،

نـحنّ إلـيهم،

نتمنـى الموتَ لأجلهم،

وحين يشعرون بكل ذلك، يـسخرون ..

يقـولون تكذبـون..

لكنهم لا يعـرفون ..

لا يصّدقون أن المحبّة سلاحـنا،

لا يفهمون كيف نحبّ أعداءنا،

نعشقهم حـتى الجـنون !

ديننـا دين الـحبّ، دين الجمالِ، دين الصّبر والـوفاء ..

أمـا هو فـدينهم دينُ الحقد، دين الـشذوذ ودين كـراهية الإنسان !

ولـهذا هم لا يفـهمون.. لا يعقلون !

النّقــش الــأخير

اعتـمدت في كتابة النـقوش على سياسة الحوار بينـي وبين المـحبوب لعدّة أهداف من بينـها :

- أن أوضّح أن علاقات الحبّ ليست فقط لـمضيعة الوقت في ما لا يفيد في شيء، وأنه يمكن أن تكون هناك حوارات هادفة بين الطّرفين يتم عبرها تبادل الخبـرات والأفكار قصد الرّقي بإنتاجاتنا الفكرية .

- أن أقول بصوتٍ عالٍ إن المحبّة سلاح المستقبل، يمكننا أن نحول طاقاتها إلــى مشاريع ناجحة، ونصـنع بها المعجزات.

- **أمّا الأهداف الأخرى فنتركها للــقارئ ليكتفشها بنفسه.**

بـيديها تحمل وردة الــحبّ وتـمرّ بـأحفادهـا لتنير لـهم الطّريق :

"أحبّتــي ..

أحبــوا الله يــحبّكم الله؛ ولئن تساءلتم يوماً بـمقدار ماذا يحبّكم الله؛ تساءلوا أيضا بأي مقدار تحــبونـه أنتم؛ وستجدون الجــواب !"

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا
Copyright © Nawal Saqa
سيجعل الله بعد عسر يسرا

هناكَ الكثير ممّا أودّ الكـتابة عنه، لكنّني كتبت هنا الأفكــار التي تكاد تحترق بداخـلي، وفي كتاب آخر موعـنا مع أفكار جديدة ..

للتـواصل معي وإبداء آرائكم:

بريدي الإلكـتروني: Imen@mql.cc

عنوان مدوّنتي: www.imenemind.blogspot.com

رابط حسابي على الفـيسبوك : www.facebook.com/imene.philo

تقاريري على موقع الجزيرة توك :
http://aljazeeratalk.net/user/298

" ومن لـم يرضَ بـحكم الله فلـيخرج من مـلكـوته إن استـطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً "